البعد الواقعي في العمل التفسيري؟

زياد خليل محمد الدغامين*

تمهيد

إن العمل التفسيري في المنهج النبوي كان قائما على إحكام الصلة بين النص القرآني والحياة الواقعية، لأن المفسر الأعظم محمد ﷺ أراد بهذا أن يخط منهج تفسير القرآن والتعامل معه قراءة وفهما، ونعني بالقراءة، القراءة الحضارية التي تمكن الأمّة من أن تتفيأ ظلال موقعها العالمي، وتتبوأ مكانتها اللائقة بها بين الأمم. ونعني بالفهم، الفهم الحضاري الذي يطرح مفاهيم القرآن ومبادءه لتشغل الساحة الفكرية والعلمية العالمية، لأن هذا القرآن قد جاء يهدي للتي هي أقوم، ويبشر المؤمنين، كما يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الإسراء:٩). وفي ضوء هذا يكون الدافع الأصيل لتفسير القرآن هو بيان هداية الله تعالى في كل مجالات الحياة الإنسانية، وفي كل ميادينها العلمية والمعرفية والعملية. وحين ندرك حجم الضلال الذي غرقت فيه البشرية في أفكارها وقيمها وأخلاقها وسلوكها ونظام حياتها على مرّ العصور، حينذاك ندرك قيمة الهداية الربانية التي بعث بها الأنبياء عامّة، والهداية القرآنية ـ التي بعث بها خاتم النبيين خاصة ـ وأثرها وضرورتها، ويكون عمل المفسر عندئذ الكشف عن هذه الهداية وبيانها بأوضح أسلوب وأيسر طريق، وبذلك يأخذ التفسير الطابع العلمي الواقعي، فيبقى وثيق الصلة بحياة الناس، ومن ثمّ يكون القرآن حاضراً باستمرار، يرشد ويوجّه، ويعدّل ويصحح، ويهدي للتي هي أقوم.

إن منهج التعامل مع القرآن يأخذ بعين الرعاية والاهتمام وظيفة الإنسان بوصفه خليفة، وجهده في القيام بهذه المهمّة التي تؤهله وتضع في يده زمام قيادة الحياة البشرية

---

* دكتوراه في التفسير من الجامعة الوطنية الماليزية.

وتوجيهها لتحقيق العبودية لله في مجالات الحياة كلها... هذا المنهج بدأت معالمه تندرس في العمل التفسيري بعد عصر الخلافة الراشدة، أو بعد عصر الصحابة بوجه عام، وانفصال القيادة الفكرية "قيادة العلماء" عن القيادة السياسية "قيادة الخلفاء". وبدأ كل يخطّ مساره بعيداً عن اتجاه الآخر في أغلب الأحيان، فقلّ تأثير العلماء في توجيه الحياة الواقعية في ضوء القرآن الكريم وهديه. هذا الانفصال رافقه انفصال آخر أشدّ منه خطورة، وأعظم منه أثراً، وهو انفصال التفسير عن الواقع، لينشغل بعد ذلك بتراكمات معرفية مصدرها النقل والرواية، وضروب من علوم اللغة والبلاغة والفلسفة والكلام والفقه... فأضيفت هذه العلوم إلى العمل التفسيري فشكلت ــ في كثير من الأحيان ــ معوّقا وعاجزاً عن فهم هداية القرآن الكريم ومقاصده.

ونحن في دراستنا لتفسير علم من أعلام التفسير وأئمته هو الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت:٦٧١هـ) نهدف إلى بيان وإبراز تلك الفجوة والهوّة في العمل التفسيري بوجه عام؛ ليقودنا ذلك إلى إصلاح منهج التعامل مع القرآن وتفسيره بوجه شمولي.

وسأعرض لهذا الأمر من خلال تتبّع كل ما كتبه القرطبي في تفسيره، وأبيّن كيف كان القرطبي يتحدث عن واقع عصره، وما الأسباب التي جعلت علماءنا يعتزلون الواقع، ويشتغلون بقضايا العلم النظرية. هذه هي القضية الأساس في هذا البحث. وسنعمل على بيانها وتجليتها في تمهيد وأربعة مباحث وخاتمة:

المبحث الأول: مفهوم التفسير الواقعي.

المبحث الثاني: عرض موجز للأحداث التي عاصرها القرطبي.

المبحث الثالث: إشارات القرطبي إلى قضايا الواقع.

المبحث الرابع: تقييم موقف القرطبي من قضايا الواقع.

الخاتمة: وتشتمل على أهم النتائج.

المبحث الأول: مفهوم التفسير الواقعي

يتوجه التفسير الواقعي إلى ربط التفسير بالواقع، ولا يعني أن يذكر المفسر الأحداث التي زامنها، والوقائع التي عاشتها الأمّة في عصره، فإن التفسير عندئذٍ سيتحول إلى مجرد كتاب تاريخ همّه رصد الأحداث التاريخية. وليس يقصد به أن يبدي المفسر عبارات النقد والسخط التي تعبر عن عدم رضاه عن الأوضاع الجاهلية في عصره، أو بيان شكواه وأنّاته من تلك الأوضاع، ولكن التفسير الواقعي يأخذ في اعتباره البعد

التحليلي للظواهر المرضية التي تعاني منها الأمّة في حياتها، والكشف عن علاج القرآن لها من خلال التفسير، وبعبارة أخرى: كيف يمكن أن يثبت المفسر أن هداية القرآن تستوعب حاجات الزمان والمكان المتجدّدة في مختلف العصور، وكيف يثبت أن هداية القرآن تضع حداً للانهيار الحضاري الذي عانت وما زالت تعاني منه الأمة في شتى مجالات حياتها. بل كيف نثبت اليوم صدق مقولة "الإسلام هو الحل"، وترجمتها من شعار نظري إلى واقع عملي في مختلف الميادين.

هذا المنهج ليس بدعا من القول، وليس إسقاطا للمنهج التفسيري الذي سلكه مفسرونا رحمهم الله، بل هو منهج ينطلق من هدي القرآن ابتداء، وهو الذي هيمن على تفسير الرسول ﷺ، وكم كان الإمام الشافعي رحمه الله حكيماً عميق الفهم عندما قال: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ (النساء:١٠٥)[١]. فهو بهذا يكشف عن حقيقة المنهج العملي الذي سلكه الرسول ﷺ في تفسير القرآن الكريم.

إن آيات القرآن الكريم كانت تتنزل استجابة لقضايا الواقع ومستجدّاته، وكانت تستجيب لحاجات المسلمين الحيّة، وتعالج القضايا الآنية في حياتهم الاجتماعية والنفسية، وفي تنظيم شؤون هذه الحياة، وتنظيم علاقاتهم مع أنفسهم ومع كل من حولهم أيضاً، وعليه ينبغي أن لا تتحوّل هذه الوظيفة العملية لآيات القرآن إلى مجرد تحليل نظري.

لقد كان المنهج العملي مسلك الصحابة ـ رضوان الله عليهم ــ في فهمهم للقرآن وتطبيقهم له، أليس فعل أبي بكر الصدّيق بإعلان الحرب على المرتدّين منهجا واقعيا سليما في فهم ظاهرة الردّة وتحليل أبعادها السياسية والاجتماعية والدينية، وإدراك آثارها المستقبلية، وتنزيل النص القرآني على ذلك الواقع؟

وفي منهج عمر رضي الله عنه أمثلة لا تحصى في فهم مقاصد القرآن الكريم وتنزيل أحكامه على الواقع العملي بعد إدراكه ذلك الواقع وتحليله في ضوء تلك المقاصد، فعدم إقامته حدّ السرقة، ومنعه تقسيم سواد العراق.. كافيان في الدلالة على ذلك المنهج الذي سلكه الصحابة في فهم القرآن وتفسيره إنْ على مستوى الفرد أو الأمّة. ثم ألم يكن البررة أصحاب رسول الله مصاحف تمشي على الأرض؟ أليس في فعلهم

---

١ انظر: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، **مقدمة في أصول التفسير**، تحقيق عدنان زرزور (الكويت: دار القرآن الكريم، بدون تاريخ)، ص٩٣.

وسلوكهم ترجمة عملية للنص القرآني؟ ليوضحوا بذلك منهج التعامل مع القرآن في مجال القراءة والفهم والتفسير.

ولمزيد من البيان نورد بعض النصوص التي تدل على ضرورة ربط التفسير بالواقع الحياتي للفرد والأمة مع أنه في غاية الوضوح نقلا وعقلا. فالتفسير لم يكن يدفع إليه إلاّ الحاجة التي هي في حد ذاتها ترجمة عملية للنص القرآني. وهل فرّق القرآن بين العلم والعمل أو طالب بأحدهما دون الآخر؟ إنّ المنهج النبوي في تعليم القرآن والحث على تعلمه يرشدك إلى منهج التعامل الصحيح مع القرآن، وتشير نصوص كثيرة إلى ذلك:

منها: ما روي عن أبي عبد الرحمن السّلمي، قال: "كنا إذا تعلمنا عشر آيات من القرآن لم نتعلم العشر التي بعدها حتى نعرف حلالها وحرامها وأمرها ونهيها". وفي رواية أخرى عنه قوله: إنما أخذنا القرآن عن قوم أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوها إلى العشر الأخرى حتى يعلموا ما فيهن من العمل، قال: فتعلمنا العلم والعمل جميعا"[٢]

ومنها: قوله ﷺ لحذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ في الحديث الذي كان يسأل فيه حذيفة عن الشرّ: "يا حذيفة تعلّم كتاب الله واتّبع ما فيه"[٣].

ومنها: ما ذكره الإمام مالك بن أنس أنه بلغه أن عبد الله بن عمر ــ رضي الله عنهما ـ مكث على سورة البقرة ثماني سنين يتعلمها"[٤]، أي: يقيم حدودها أمرا ونهيا، وإدراكا وفقها، فكانت منطلقا له في حركته الفكرية والعملية.

وقد كان بعضهم يخرج إلى سوق الكوفة لينظر إلى الإبل[٥]، لأن الله تعالى يقول: ﴿أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (الغاشية:١٧)، ليتحصّل على المعرفة من خلال المشاهدة، وليقيم أمر الله تعالى بالنظر إليها، فكل نظر ـ كهذا ـ يجلب لصاحبه فائدة، تغذّي إيمانه، وتقوّي يقينه، وتزوده بمعرفة منبثقة من دراسة النّص القرآني دراسة عملية واعية.

---

٢ أخرجه الطبري، قال الشيخ محمود شاكر: إسناده صحيح متصل. انظر: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، تحقيق محمود شاكر، ومراجعة أحمد شاكر (مصر: دار المعارف، ١٣٧٤هـ) ج١، هامش ص٨٠. وأحمد بن شعيب النسائي، **فضائل القرآن**، تحقيق فاروق حمادة (الدار البيضاء: دار إحياء العلوم، ١٩٩٢)، ص٩٩ـ١٠٠. وأبو بكر جعفر بن محمد الفريابي، **فضائل القرآن**، تحقيق يوسف عثمان جبريل (الرياض: مكتبة الرشد، ١٩٨٩)، ص٢٤١، حديث رقم١٦٩.

٣ أخرجه الحاكم وقال: صحيح الإسناد و لم يخرجه، ووافقه الذهبي. انظر: أبو عبد الله بن البيّع النيسابوري الحاكم، **المستدرك على الصحيحين** (بيروت: دار المعرفة، بدون تاريخ)، ج٤، ص٤٣٢. ومحمد ناصر الدين الألباني، **صحيح سنن أبي داود** (الرياض: مكتب التربية لدول الخليج، ١٩٨٩)، ج٣، ص٧٩٩، حديث رقم٣٥٧١.

٤ أخرجه مالك، انظر: مالك بن أنس الأصبحي، **الموطأ** (بيروت: دار النفائس، ١٩٩٠)، ص١٣٧ـ١٣٨، حديث رقم ٤٧٩.

٥ الطبري، **جامع البيان**، (بيروت: دار المعرفة، ١٩٨٠)، ج٣٠، ص١٠٥.

إن التفسير الواقعي يتطلب خبرة ودراية بالواقع، وألاّ يكون العالم مجرد حافظ نصوص، أو متفنن في العلوم، وقد بيّن الأستاذ الإمام محمد عبده مفتي الديار المصرية، والشيخ جمال الدين أفندي شيخ الأستانة ضرورة أن يكون العالم مدركا لأوضاع عصره، وأحوال زمانه.[٦]

أقول: لقد بدأ التفسير ينفصل عن الواقع في عهد مبكر، وأخذ الطابع النظري يغزو فهم القرآن لأسباب عدّة؛ من أهمها: انتشار الأفكار التي لا تنسجم مع روح العقيدة الإسلامية، فتحوّل التفسير إلى معارك فكرية مذهبية بين أهل السنّة والمعتزلة والخوارج والشيعة وغيرها، إضافة إلى خلافات النحويين والفقهاء... وتحوّل الأمر بعد ذلك ليكون الدافع لتفسير القرآن ـ عند كثير من المفسرين وبنسب متفاوتة ـ هو المتعة الفكرية والشغف الثقافي بكثير من المعارف والفنون، ومن هنا بدأ التجاوز الصريح للواقع الحياتي للأمّة، وقامت الفجوة بين تفسير القرآن الذي هو المحرّك الحقيقي لحياتها وبين واقع هذه الأمّة!!

المبحث الثاني: عرض موجز للأحداث التي عاصرها القرطبي

إذا ما انتقلنا إلى تفسير العلامة الفقيه المالكي أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي الأندلسي المسوم بـ "الجامع لأحكام القرآن، والمبيّن لما تضمنه من السنّة وآي الفرقان" وجدنا أن ثقافته وعلمه بالأحكام قد تميز بها تفسيره وتلوّن، فجمع لنا تراثا فقهيا عظيما، هو حصيلة فقه من تقدّمه من سلف هذه الأمّة، وناقش الكثير من الأحكام

---

٦ في الحوار الذي جرى بينهما في الأستانة في سياق الحديث عن المحاكم غير الشرعية: **يقول المفتي**: إن كان للمسلمين شكوى مما يرونه ماساً بشريعتهم فأجدر بهم أن يشتكوا من أنفسهم لا ممن يعتدي عليهم. **يقول الشيخ**: لا ريب في ذلك فإن حياة كل أمة تقوم باستعدادها لكل زمان بما يناسبه، ومن غالب الزمان غلبه الزمان، ولكنا نؤمّل أن يتغير الحال ويتنبه المسلمون لما فاتهم فيحصلوه، وذلك لا يكون إلا بهمة علمائهم وحملة شريعتهم. **يقول المفتي**: نعم، ذلك لا يكون إلا بهمة علمائهم ولكن العلماء في انصراف تام عن شؤون العامة وقد تركوا أهم تلك الشؤون إلى الحكام ووكلوا بعضها إلى العامة أنفسهم وجعلوا نصح العامة والخاصة أو الاشتغال بما يهيئ لذلك من العمل مما لا يعنيهم، ولم تبق لأحد منهم علاقات مع العامة اللهم إلا أولئك القصاص الذين يسمونهم وعاظاً أو مدرسي مساجد وما هم من علم الدين وشؤون العامة على شيء وهم يفسدون أكثر مما يصلحون. **يقول الشيخ**: لا شك أن أغلب المشتغلين بعلوم الدين تنقصهم الخبرة بأحوال الناس ويفوتهم العلم بما عليه أهل العصر، ولو خبروا الزمان وأهله لأمكنهم أن يحموا شرعهم، ويعلوا شأن أهل ملتهم، مع أن العالم لا يكون عالما حتى يكون مع علمه عارفاً والعارف هو الذي يمكنه أن يوثق بين الشرع وبين ما ينفع الناس في كل زمان بحسبه، ومن كان بارعاً في العلوم الدينية ولكن لا يعرف حال أهل عصره ولا يراقب أحكام زمانه فلا يسمى عالماً ولكنه يسمى "متفنناً" أعني أنه يعرف فن النحو أو فن الفقه أو ما أشبه ذلك ولا يسمى عالماً على الحقيقة حتى يظهر أثر علمه في قومه ولا يظهر ذلك الأثر إلا بعد علمه بأحوالهم وإدراكه لحاجاتهم. **يقول المفتي**: ما تقوله سماحتكم هو المعروف عند الأولين من علمائنا وقد جاء في كثير من كتب السادة المالكية تعريف العالم بأنه "العاكف على شأنه البصير بأهل زمانه".. **يقول الشيخ**: نعم إن مما يؤسف عليه الأسف العظيم أن من كان من علماء المسلمين على شيء من العلم فإنما يعد في الحقيقة "متفنناً" ولا يصح أن يطلق عليه اسم العالم... انظر: محمد عمارة، **الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده** (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٣)، ١/٨٨١-٨٨٣.

بنزاهة وموضوعية، واستقلالية في الرأي. ولقد كان وصف د. الذهبي صادقا في القول: إن القرطبي رحمه الله في تفسيره هذا حرّ في بحثه، نزيه في نقده، عفّ في مناقشته وجدله، ملمّ بالتفسير من جميع نواحيه، بارع في كل فن استطرد إليه وتكلم فيه.[٧]

إلاّ أنه ـ مع هذا ـ قلّ اهتمامه بفقه الواقع، الفقه الذي يعالج به قضايا الواقع وهمومه من خلال تفسيره لكتاب الله. وإذا كان المفسر الذي يكشف عن هداية القرآن لم يعتن بواقع عصره، فمن الذي سيوليه العناية الكافية إذاً؟ وكيف يصل الناس إلى هذه الهداية؟ إن أكبر عجز نواجهه حديثا هو: دعوتنا إلى تحكيم الإسلام في نظم الحياة مع عدم قدرتنا على تقديم الهداية القرآنية في هذه النظم، وعدم قدرتنا على فهم الواقع وتحليل أبعاده وتوصيف العلاج القرآني لكل الظواهر المرضية في المجتمع البشري. إننا ننادي بتحريم الربا دون أن نقدم بديلا عمليا واقعيا شموليا لأزمة الاقتصاد على ضوء الهداية القرآنية! بل الأمر أشدّ من ذلك حين نكون عاجزين عن فهم الواقع الاقتصادي الربوي ومن ثم عاجزين عن اختراقه وإثبات فشله. إن الذي يراد من خلال التفسير الواقعي هو فهم الواقع من جميع أبعاده مع القدرة على التعامل معه، لا وصف الواقع والشكوى منه بالاسترجاع والحوقلة!

قد يقول قائل: إن بيان القرطبي لأحكام القرآن بهذا التفصيل، إنما يضع للناس مصدراً مهمّا في تبصّر طريقهم، وفهم كتاب ربّهم، والتفسير الواقعي لا يكون إلا بفهم أحكام دين الله! ونقول: نعم! هذا صحيح، لو أن القضايا الفقهية التي عرض لها القرطبي جاءت نتيجة مستجدّات تطور الحياة. إن القرطبي ليس أول فقيه يعرض لهذه الأحكام، ثم إن هناك كتبا هائلة في الأحكام الفقهية على مختلف المذاهب الإسلامية قد سبق تدوينُها الإمام القرطبي رحمه الله.

وسنبيّن هنا ـ بإيجاز شديد ـ أهم الأحداث التي وقعت في عصره في البلاد الإسلامية، ثم نلقي الضوء على تفسيره لنبحث عن حجم معالجته للواقع.

لقد رحل القرطبي إلى المشرق وكانت الأندلس تواجه أحداثا جساما، وحملات صليبية مجرمة، ووضعا سياسيا مؤلما، وتفرقا في صفوف الأمّة جعلها فريسة سهلة للطامعين... وكثرت الخيانات من المتسلّطين على مقاليد الحكم والسياسة من أبناء العشائر والقبائل، كل هذه الأحداث زامنها الإمام القرطبي، "ففي سنة ٦٠٩هـ استولى الإفرنج على أكثر الأندلس بعد وقعة العقاب، وهي الواقعة الطامّة على الأندلس بل والمغرب جميعا، وما ذاك إلا لسوء تدبير أحد القادة وهو محمد الناصر، فإنه استخفّ برجال الأندلس العارفين

---

٧ محمد حسين الذهبي، **التفسير والمفسرون** (القاهرة: دار الكتب الحديثة، ١٩٧٦)، ج٢، ص٤٦٤.

بالقتال، فشنق بعضهم، ففسدت النيّات... و لم تقم بعدها للمسلمين قائمة تحمد"[٨].

وفي سنة ٦٢٧هـ سقطت الجزر الشرقية في الأندلس، وأكبرها جزيرة ميورقة... وفي يوم الأحد الثالث والعشرين من شوال سنة ٦٣٦هـ سقطت المدينة العملاقة قرطبة... وسقطت بلنسية إحدى المدن المجاهدة، وكبرى قواعد شرقي الأندلس، وتلا سقوطها سقوط عدد من المدن القريبة، مدينة تتلوها مدينة، وأجلى المسلمون عن هذه المدن، قال المقري: و لم يزل أهل الأندلس بعد ظهور النصارى على كثير منها يستنهضون عزائم الملوك والسوقة لأخذ الثأر بالنظم وبالنثر، فلم ينفعهم ذلك حتى اتسع الخرق، وأعضل الداء أهل الغرب والشرق... وفي سنة ٦٤٦هـ سقطت المدينة العظمى اشبيلية"[٩] "وتجرع أهلها كثيرا من الأذى، ونالهم الأسى، أشد منه وأدمى رحيلهم عنها وقلوبهم حزنى، يجللهم النكد، ويفريهم فراق البلد. غادرها من أهلها ما يقدر بأربعمائة ألف قصدوا مدن الأندلس أو العدوة الأخرى... لقد جرّعوا أهلها كأس الحمام، من كثرة المجاعة وعدم الطعام، فكل منهم في بحر المنايا غاص وعام، مما حلّ بهم من الأوجال والآلام، فسلّموا لهم المدينة وخرج منها الخاص من أهلها والعام".[١٠]

وجاء في وصف حال الأندلس على لسان بعض العلماء: لقد طرقت الدهياء ذلك القطر الذي ليس له في الحسن مثال، وانسل إليه الخطب من كل حدب وانثال، وكل ذلك من اختلاف رؤسائه وكبرائه، ومقدّميه وقضاته وأمرائه ووزرائه، فكلّ يروم الرياسة لنفسه، ويجرّ نارها لقرصه، والنصارى يضربون بينهم بالخداع والمكر والكيد، ويضربون عمرا بزيد، حتى تمكنوا من أخذ البلاد، والاستيلاء على الطارف والتلاد.[١١]

وزامن القرطبي ـ رحمه الله ـ الأحداث المأساوية في بلاد المشرق التي لم تكن تختلف عن الأحداث في بلاد المغرب والأندلس، فالمرض واحد وأعراضه واحدة، وفي ظل غياب مبدأ الشورى الإسلامي، وذهاب هيبة العلماء، وتسلّط القائمين على الحكم ضاعت البلاد، وطمع فيها الأعداء حين رأوا الخلاف بين هؤلاء الحكام إلى الحدّ الذي يقاتل بعضهم بعضا، ويتحالفون ضدّ بعضهم البعض طمعا في الملك، بل تحالفوا مع الفرنجة وغيرهم من أجل هذا الهدف، كما فعل الملك عمر بن العادل الذي حثّ هولاكو التتري

---

٨ انظر: أحمد بن محمد المقري، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق إحسان عباس (بيروت: دار صادر، ١٩٦٨)، ج٤، ص٣٨٣.

٩ المصدر نفسه، ج٤، ص٤٦٩-٤٧٢-٤٧٩. وانظر: د. عبد الرحمن علي الحجي، **التاريخ الأندلسي** (القاهرة: دار الإعتصام، ١٩٨٣)، ص٤٦٤-٤٨٢.

١٠ الحجي، **التاريخ الأندلسي**، مرجع سابق، ص٤٨٢.

١١ المقري، **نفح الطيب**، مرجع سابق، ج٤، ص٥٠٧.

على القدوم إلى الشام ثانية بعد هزيمته[١٢]. وظهر في هذا العصر جنكيز خان، وأعمل سيفه في لحوم المسلمين في حوادث كثيرة، أشار ابن كثير إلى أحدها فقال مشيراً إلى كثرة ما أحدثه من قتل: لعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا إلاّ يأجوج ومأجوج[١٣]. واستمر الحال في المشرق الإسلامي ما بين غارات التتار المتكررة والمؤذية على المشرق الإسلامي، وما بين غارات الصليبيين واحتلالهم لبلاد كثيرة في مصر والشام وخاصة بيت المقدس حيث عاثوا فيها الفساد... وفي سنة ٦٥٦هـ سقطت عاصمة الخلافة الإسلامية على يد التتار، وقتلوا فيها ـ على قول ـ ألفي ألف نفس[١٤].

المبحث الثالث: إشارات القرطبي إلى قضايا الواقع

يمكن تصنيف هذه القضايا في خمسة موضوعات، هي: موضوع الجهاد، وموضوع الصوفية والتصوّف، وموضوع فساد الحكام، وموضوع فساد العلماء والعامة وأحوال العصر، والموضوع الأخير متفرقات ذكرها القرطبي فيما يتصل بذلك الواقع، وإليك بيانها:

أولا: الجهاد في سبيل الله تعالى

وهو من الموضوعات الأساسية المهمّة التي كانت تشغل عصر القرطبي في العالم الإسلامي كله، وليس في الأندلس فحسب، والقرطبي ينبغي أن يدخل هذا المعترك كمفكر إسلامي، ومفسر عظيم، ليبلغ هداية الله للناس، فالمفسر هو أولى من يقوم به، ولنستمع إلى حديث القرطبي في هذا الموضوع:

عند تفسير قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ...﴾ (البقرة:٢١٦). نقل تفسير أبي عبيدة للآية، وهو: "عسى أن تكرهوا ما في الجهاد من المشقّة وهو خير لكم في أنكم تغلبون وتظفرون وتغنمون وتؤجرون، ومن مات مات شهيداً، وعسى أن تحبّوا الدّعة وترك القتال وهو شرّ لكم في أنكم تغلبون وتذلون ويذهب أمركم. قلت ـ والقول للقرطبي ـ: وهذا صحيح لا غبار عليه؛ كما اتفق في بلاد الأندلس، تركوا الجهاد وجبنوا عن القتال وأكثروا من الفرار؛ فاستولى العدوّ على البلاد، وأيّ بلاد؟ وأسر وقتل وسبي واسترقّ، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون! ذلك بما قدّمت أيدينا وكسبته"[١٥]. واكتفى بهذا التعليق في مثل هذا الآية التي بيّن ما تضمنته من أحكام في ثلاث مسائل في صفحتين، بينما فسّر آية ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ (البقرة:٢٢٢)

---

١٢ انظر: عماد الدين إسماعيل بن كثير الدمشقي، **البداية والنهاية**، تحقيق خمسة من الأساتذة (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٥)، ج١٣، ص٢٥٢-٢٥٣.

١٣ المصدر السابق نفسه، ج١٣، ص٩٤.

١٤ المصدر نفسه، ج١٣، ص٢١٥. ولمعرفة الأحداث ما بين سنتي ٦٠٠-٦٧١هـ انظر: ج١٣، ص٤٠-٢٧١.

١٥ أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** (القاهرة: دار الكتاب العربي، ١٩٦٧)، ج٣، ص٣٩.

التي بعدها في أربع عشرة مسألة في اثنتي عشرة صفحة!!

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ..﴾ (البقرة:٢٤٩) ذكر أن في قولهم هذا تحريضا على القتال واستشعارا للصبر واقتداء بمن صدّق ربه، قلت ـ والقول للقرطبي ـ هكذا يجب علينا أن نفعل، لكن الأعمال القبيحة والنيّات الفاسدة منعت من ذلك، حتى ينكسر العدد الكبير منّا قدّام اليسير من العدوّ كما شاهدنا غير مرّة؛ وذلك بما كسبت أيدينا. ثم يبيّن القرطبي أسباب النصر فيقول: في البخاري، وقال أبو الدرداء: إنما تقاتلون بأعمالكم، وفيه مسند أن النبي ﷺ قال: "هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم" فالأعمال فاسدة، والضعفاء مهملون، والصبر قليل، والاعتماد ضعيف، والتقوى زائلة. قال الله تعالى: ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ (آل عمران:٢٠٠)، وقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾ (المائدة:٢٣)، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الأنفال:٤٥). فهذه أسباب النصر وشروطه وهي معدومة عندنا غير موجودة فينا، فإنا لله وإنا إليه راجعون على ما أصابنا وحلّ بنا، بل لم يبق من الإسلام إلا ذكره، ولا من الدين إلا رسمه؛ لظهور الفساد ولكثرة الطغيان، وقلة الرشاد حتى استولى العدوّ شرقا وغربا وبرا وبحرا، وعمّت الفتن، وعظمت المحن، ولا عاصم إلا من رحم.[١٦]

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ (البقرة:٢٤٥) روى حديثا سمعه من شيخه بقرطبة، فحين ذكر قرطبة قال: "أعادها الله"[١٧]. فإذا كان هذا هو تعليق العالم المفسر، فما عسى أن يكون تعليق عامة الناس؟

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا...﴾ (آل عمران:١٦٩) ذكر في المسألة الخامسة: أن العدوّ إذا صبّح قومًا في منزلهم ولم يعلموا به فقتل منهم فهل يكون حكمه حكم قتيل المعترك، أو سائر الموتى؟ وهذه المسألة نزلت عندنا بقرطبة أعادها الله، أغار العدوّ ـ قصمه الله ـ صبيحة الثالث من رمضان المعظّم سنة سبع وعشرين وستمائة والناس في أجرانهم على غفلة، فقتل وأسر، وكان من جملة من قتل والدي رحمه الله؛ فسألت شيخنا المقرئ الأستاذ أبا جعفر أحمد المعروف بأبي حجة فقال: غسلّه وصلّ عليه، فإن أباك لم يقتل في المعترك بين الصفّين. ثم سألت شيخنا ربيع بن عبد الرحمن بن أحمد بن ربيع بن أبيّ، فقال: إن حكمه حكم القتلى في المعترك. ثم سألت

---

١٦ المصدر السابق نفسه، ج٣، ص٢٥٥.

١٧ المصدر نفسه، ج٣، ص٢٣٧.

قاضي الجماعة أبا الحسن عليّ بن قطرال وحوله جماعة من الفقهاء، فقالوا: غسّله وكفنه وصلّ عليه؛ ففعلت. ثم بعد ذلك وقفت على المسألة في "التبصرة" لأبي الحسن اللخمي وغيره، ولو كان ذلك قبل ذلك ما غسّلته، وكنت دفنته بدمه في ثيابه[١٨]. وقد شغلت هذه القضية الجزئية الإمام القرطبي رحمه الله حتى سأل عنها ثلاثة من الشيوخ الأعلام.

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ..﴾ (الأنفال:٧٢) ذكر عن ابن العربي: ... إلا أن يكونوا أسراء مستضعفين فإن الولاية معهم قائمة، والنصرة لهم واجبة، حتى لا تبقى منا عين تطرف حتى نخرج إلى استنقاذهم إن كان عددنا يحتمل ذلك، أو نبذل جميع أموالنا في استخراجهم حتى لا يبقى لأحد درهم. كذلك قال مالك وجميع العلماء؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون على ما حلّ بالخلق في تركهم إخوانهم في أسر العدوّ وبأيديهم خزائن الأموال، وفضول الأحوال والقدرة والعدد، والقوّة والجلد[١٩] وهذا الاسترجاع والوصف لأحوال العصر من كلام ابن العربي المتوفى سنة ٥٤٣هـ[٢٠] وكأن مثل هذا الوصف يحتاج إلى نقل لا سيما وأن الأوضاع في زمن القرطبي كانت أسوأ بكثير مما كانت عليه في زمن ابن العربي رحمهما الله تعالى.

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا..﴾ (التوبة:٤١) تابع ابن العربي أيضا قوله: ولقد نزل بنا العدو ـ قصمه الله ـ سنة سبع وعشرين وخمسمائة فجاس ديارنا، وأسر خيرتنا، وتوسط بلادنا في عدد هال الناس عدده، وكان كثيراً وإن لم يبلغ ما حدّدوه. فقلت للوالي والمولى عليه: هذا عدوّ الله قد حصل في الشَّرَك والشبكة، فلتكن عندكم بركة، ولتظهر منكم إلى نصرة الدين المتعيّنة عليكم حركة، فليخرج إليه جميع الناس حتى لا يبقى منهم أحد في جميع الأقطار فيحاط به، فإنه هالك لا محالة إن يسركم الله له، فغلبت الذنوب ورجفت القلوب بالمعاصي، وصار كل أحد من الناس ثعلبا يأوي إلى وجاره* ، وإن رأى المكيدة بجاره، فإن لله وإنا إليه راجعون، وهو حسبنا ونعم الوكيل[٢١]. وقال المقري معلقا: ولا خفاء أن هذا قبل أخذ العدو شرق الأندلس وسرقسطة وميورقة وغيرها، والبدايات عنوان على النهايات[٢٢].

---

١٨ المصدر نفسه، ج٤، ص٢٧٢.

١٩ المصدر نفسه، ج٨، ص٥٧.

٢٠ انظر: أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي، **أحكام القرآن**، تحقيق علي محمد البجاوي (بيروت: دار المعرفة، بدون تاريخ)، ج٢، ص٨٨٨.

* الوجار: الجحر الذي تأوي إليه، انظر: مجد الدين المبارك بن محمد المعروف بابن الأثير، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، تحقيق محمود الطناحي (نشر المكتبة الإسلامية، بلا تاريخ)، ٥/١٥٦.

٢١ المصدر السابق نفسه، ج٢، ص٩٥٥. وانظر: **الجامع لأحكام القرآن**، ج٨، ص١٥٢-١٥٣.

٢٢ **نفح الطيب**، مرجع سابق، ج٤، ص٤٧٧.

لقد استشرى المرض في القلوب وتغلغل فكيف يعالج؟ وكيف تقوى هذه النفوس على مقاتلة العدوّ والوقوف في وجهه؟ وإذا كانت أوضاع الأمّة بهذه الحال، فإن الكشف عن سبب دائها وسرّ دوائها يكون هو الواقعية في التفسير، وليس الاقتصار على مجرد وصف الواقع.

وفي عرض تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا..﴾ (يوسف:١٧) تحدث القرطبي عن سباق الخيل، وقال ملمّحا: والخيل التي يجب أن تضمّر ويسابق عليها ، وتقام هذه السنة فيها هي الخيل المعدة لجهاد العدو لا لقتال المسلمين في الفتن[٢٣] والأمر أعظم من مجرد التلميح، وأدهى من أن يعالج بالإشارة!!

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ (النساء:١٤١) ذكر في المعنى الثالث لهذه الجملة أن الله سبحانه لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا منه، إلاّ أن يتواصوا بالباطل ولا يتناهوا عن المنكر، ويتقاعدوا عن التوبة فيكون تسليط العدوّ من قبلهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ (الشورى:٣٠) قال ابن العربي: هذا نفيس جداً. قلت ـ والقول للقرطبي ـ: ويدل عليه قوله عليه السلام في حديث ثوبان: "حتى يكون بعضهم يهلك بعضا، ويسبي بعضهم بعضا"، وذلك أن "حتى" غاية، فيقتضي ظاهر الكلام أنه لا يسلط عليهم عدوهم فيستبيحهم إلاّ إذا كان منهم إهلاك بعضهم لبعض، وسبي بعضهم لبعض، وقد وجد ذلك في هذه الزمان بالفتن الواقعة بين المسلمين؛ فغلظت شوكة الكافرين، واستولوا على بلاد المسلمين حتى لم يبق من الإسلام إلاّ أقله، فنسأل الله أن يتداركنا بعفوه ونصره ولطفه[٢٤]. اللهمّ آمين. فإن كان الإسلام لم يبق إلا أقله، فما هو واجب العلماء كافّة، والمفسرين على وجه الخصوص!!

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (النحل:٥)، نقل كلاما عن ابن العربي تضمن ذكر بيت المقدس، فأضاف القرطبي إليه عبارة "طهّره الله"[٢٥] فيكون بذلك متحدثا عن واقع عصره على رأي بعضهم!

ولمزيد من التوضيح أقول: كان بيت المقدس في أيدي المسلمين منذ الفتح العمري له، حتى سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، وفي تلك السنة وقع في أسر الصليبيين حتى حرّره صلاح الدّين الأيوبي سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، فبقي في أيدي المسلمين حتى سلّموه

---

٢٣ **الجامع لأحكام القرآن**، ج٩، ص١٤٦.

٢٤ المصدر نفسه، ج٥، ص٤٢٠.

٢٥ المصدر نفسه، ج١٠، ص٧٠. وانظر: ابن العربي، **أحكام القرآن**، ج٣، ص١١٤.

إلى الإفرنج سنة ست وعشرين وستمائة، ثم حررّه مرّة أخرى الملك الناصر داود سنة سبع وثلاثين وستمائة، ثم عاد وسلّم إلى الإفرنج سنة إحدى وأربعين وستمائة، ثم فتح على يد الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة اثنتين وأربعين وستمائة[٢٦].

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ (الإسراء:٤٥)، ذكر القرطبي رحمه الله روايات تذكر كيف عميت امرأة أبي لهب عن رؤية الرسول ﷺ... ثم قال: ولقد اتفق لي ببلادنا الأندلس بحصن منثور من أعمال قرطبة مثل هذا؛ وذلك أنني هربت أمام العدوّ وانحزت إلى ناحية أخرى، فلم ألبث أن خرج في طلبي فارسان، وأنا في فضاء من الأرض قاعد ليس يسترني عنهما شيء، وأنا أقرأ أول سورة يس وغير ذلك من القرآن، فعبرا عليّ ثم رجعا من حيث جاءا، وأحدهما يقول للآخر: هذا ديبله، يعنون شيطانا، وأعمى الله عزّ وجلّ أبصارهم فلم يروني، والحمد لله حمداً كثيراً على ذلك[٢٧]. وهذه كرامة له رحمه الله فقد كان تقيّا صالحا، نحسبه كذلك ولا نزكي على الله أحداً، ومشاركته في الجهاد قدوة عملية للناس، وحديثنا لا يمس شخصية القرطبي رحمه الله، بل يتعلق بربط التفسير بقضايا الواقع وتحدياته وإشكالاته ربطا منهجياً؛ لتظهر هداية القرآن من خلال معالجة التفسير لتلك القضايا والتحدّيات التي يواجهها عصر المفسر، أي مفسر.

ثانيا: الصوفية والتصوف

لقد غلب على القرطبي رحمه الله روح التصوف، فعاش زاهداً ورعا، ومع هذا كان شديد النقد والرفض لبدع الصوفية وتعاليمها. فعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لأَدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ..﴾ (البقرة:٣٤)، تحدث عن النهي عن السجود للبشر، وقال: وهذا السجود المنهي عنه قد اتّخذه جهّال المتصوّفة عادة في سماعهم وعند دخولهم على مشايخهم واستغفارهم، فيرى الواحد منهم إذا أخذه الحال بزعمه يسجد للأقدام لجهله، سواء أكان للقبلة أم غيرها جهالة منه؛ ضلّ سعيهم وخاب عملهم[٢٨].

وتحدث عن ذلك أيضا عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا...﴾ (يوسف:١٠٠): وأجمع المفسرون أن ذلك السجود على أي وجه كان فإنما كان تحية لا عبادة... قلت ـ والقول للقرطبي ـ هذا الانحناء والتكفّي الذي نسخ

---

٢٦ انظر: القاضي أبو اليمن مجير الدين الحنبلي، **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل** (عمان: مكتبة المحتسب، ١٩٧٣)، ج١، ص٣٠٧-٣١٧-٤٠٦، ج٢، ص٥-٨.

٢٧ المصدر نفسه، ج١٠، ص٢٧٠.

٢٨ المصدر نفسه، ج١، ص٢٩٤.

عنّا صار عادة بالديار المصرية وعند العجم، وكذلك قيام بعضهم إلى بعض، حتى إن أحدهم إذا لم يقم له وجد في نفسه كأنه لا يؤبه به، وأنه لا قدر له، وكذلك إذا التقوا انحنى بعضهم لبعض، عادة مستمرة، ووراثة مستقرة لا سيما عند التقاء الأمراء والرؤساء، نكبوا عن السّنن وأعرضوا عن السنن[٢٩]. وهو نقد لاذع من القرطبي لأولئك القوم، لكن نقد الصوفية قد سبق إليه الإمام ابن الجوزي في كتابه "تلبيس إبليس" على صورة أقذع مما ذكر القرطبي رحمه الله، وهو مع هذا يبقى مجرد نقد.

تحدث عن الخشوع عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ..﴾ (البقرة:٤٥)، وذكر أن السلف كانوا يجتهدون في ستر ما يظهر من ذلك، وأما المذموم فتكلّفه والتباكي وطأطأة الرأس كما يفعله الجهّال ليروا بعين البرّ والإجلال، وذلك من خدع الشيطان، وتسويل من نفس الإنسان[٣٠]. ولعلّه من فعل المتصوفة كذلك.

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ..﴾ (الكهف:١٤)، ذكر عن ابن عطية أن الصوفية تعلقت بهذه الآية في القيام والقول، وقال: وهذا تعلّق غير صحيح، هؤلاء قاموا فذكروا الله على هدايته، وشكروا لما أولاهم من نعمه ونعمته، ثم هاموا على وجوههم منقطعين إلى ربهم خائفين من قومهم، وهذه سنّة الله في الرسل والأنبياء والفضلاء والأولياء، أين هذا من ضرب الأرض بالأقدام، والرقص بالأكمام، وخاصّة في هذه الأزمان عند سماع الأصوات الحسان من المرد والنسوان، هيهات بينهما والله ما بين الأرض والسماء[٣١].

وفيما يتصل بالموضوع نفسه يتحدث القرطبي عن الغناء المحرم، كالأشعار التي توصف فيها الصور المستحسنات والخمر وغير ذلك مما يحرك الطباع ويخرجها عن الاعتدال، أو يثير كامنا من حبّ اللهو... لا سيما إذا اقترن بذلك شابات وطارات، مثل ما يفعل اليوم في هذه الأزمان[٣٢]. وذكر أيضا أن ما ابتدعته الصوفية اليوم من الإدمان على سماع المغاني بالآلات المطربة من الشابات والطار والمعازف والأوتار فحرام[٣٣].

ويظل القرطبي يهاجم بدع الصوفية وعاداتها في كل تفسيره، ويصفهم بأنهم جهلة أغمار، وأنهم جهال متزهدة، وأن مذهب الصوفية بطالة وجهالة وضلالة[٣٤].

---

٢٩ المصدر نفسه، ج٩، ص٣٩.
٣٠ المصدر نفسه، ج١، ص٣٧٥.
٣١ المصدر نفسه، ج١٠، ص٣٦٦. وانظر: ص٢٦٣-٢٦٥ من الجزء نفسه.
٣٢ المصدر نفسه، ج١٣، ص٨٠.
٣٣ المصدر نفسه، ج١٤، ص٥٤.
٣٤ المصدر نفسه، ج١١، انظر: ص١٣-٢٤-٩٥-٢٣٨.

لكن ينبغي أن يفهم من هذا أمران: أولهما: أن القرطبي ليس إلاّ ضدّ بدع الصوفية وجهالاتهم وضلالاتهم، لا ضدّ روح التصوف وحقيقته، وقد كان يستشهد بعبارات الصوفية وأقوالهم وأشعارهم إعجابا منه بها، وتقديرا منه لها[٣٥]. والثاني: ليس القرطبي أول من ينتقد التصوف والمتصوفة، ولم تكن هذه القضايا جديدة على عصره، وهو في النهاية مجرد نقد وتسفيه لهم.

ثالثا: فساد الحكام

تطرّق القرطبي رحمه الله في ثنايا تفسيره إلى الحديث عن بعض أوصاف حكام عصره بإيجاز شديد، وقد كان حديثه ينمّ عن سخط وغضب عليهم لما أحدثوا ويحدثون من مفاسد وشرور، فعند تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الأَيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (آل عمران:١١٨)، تحدّث عن أن الله نهى عن اتخاذ الكفار واليهود وأهل الأهواء دخلاء وولجاء.. وأن عمر نهى عن استكتاب أهل الكتاب؛ لأنهم يستحلون الرّشا، وأنه لا يجوز استكتاب أهل الذمة، ثم قال رحمه الله: "وقد انقلبت الأحوال في هذه الأزمان باتخاذ أهل الكتاب كتبة وأمناء، وتسودّوا بذلك عند الجهلة الأغبياء من الولاة والأمراء"[٣٦]. وهو تعليق ساخط على أولئك الأمراء، وهو نتيجة حتمية لانفصال القيادة الفكرية عن القيادة السياسية، واعتزال القيادة الفكرية دنيا الحكام.

ولذلك فإن القرطبي لا يجيز الدعاء لهؤلاء الحكام على المنابر أيام الجمع، ويعتبر ذكرهم من قبيل ذكر الشيطان، فعند تفسيره قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسَعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ..﴾ (الجمعة:٩) بيّن القرطبي بعد تفسير الآية أن ما كان من ذكر رسول الله ﷺ والثناء عليه، وعلى خلفائه الراشدين، وأتقياء المؤمنين والموعظة والتذكير فهو في حكم ذكر الله. فأما ما عدا ذلك من ذكر الظلمة وألقابهم والثناء عليهم والدعاء لهم، وهم أحقاء بعكس ذلك فهو من ذكر الشيطان[٣٧].

بل يصرح بما هو أشدّ من ذلك؛ فيقول: إن ولاة زماننا لا تجوز طاعتهم ولا معاونتهم ولا تعظيمهم، ويجب الغزو معهم إذا غزوا، والحكم من قبلهم، وتولية

---

٣٥ انظر على سبيل المثال: ج١٨، ص٢٨-١٤٣.
٣٦ المصدر نفسه، ج٤، ص١٧٩.
٣٧ المصدر نفسه، ج١٨، ص١٠٧.

الإمامة والحسبة، وإقامة ذلك على وجه الشريعة. وإن صلّوا بنا وكانوا فسقة من جهة المعاصي جازت الصلاة معهم، وإن كانوا مبتدعة لم تجز الصلاة معهم إلا أن يخافوا؛ فيصلّى معهم تقيّة، وتعاد الصلاة[٣٨].

ثم يذهب القرطبي رحمه الله ليقول: "إن أكثر العلماء على أن الصبر على طاعة الإمام الجائر أولى من الخروج عليه.... أما الخروج فهو مذهب طائفة من المعتزلة وهو مذهب الخوارج فاعلمه"![٣٩]. أقول: لا يبدو أن هناك معالجة منهجية لهذه القضية، لأنها ينبغي أن تعالج في إطار واقع القرطبي، لتكون الفتوى بذلك فتوى واقعية، منبثقة من فقه واقعي، لكن هذه القضية في فقهنا الإسلامي عولجت من خلفية تاريخية لا زالت تلقي بظلالها على العصور اللاحقة، وعلى هذا لا ينبغي أن يتحوّل فقهنا إلى فقه تاريخي. ولا بدّ من السعي نحو فقه أصيل معاصر واقعي.

تحدث القرطبي عن بعض أحوال عصره حديث الساخط المتألم لفساد أحوال الناس وشيوع الظلم، وكثرة الفتن... فقد تحدث عن الرشوة عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ..﴾ (البقرة:١٨٨)، وذكر أن مما قيل في معناها: لا تصانعوا بأموالكم الحكام مظنة الرّشاء إلاّ من عصم وهو الأقل.. قلت ـ والقول للقرطبي ـ: فالحكام اليوم عين الرّشا لا مظنته، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله[٤٠].

وأشار ملمّحا إلى أثر الظلم وضرره على العمران والحياة كلها، فعند تفسير قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا...﴾ (الرعد:٤١) ذكر قولا يبيّن كيفية نقص الأرض من أطرافها، فقال: قيل: نقصها بجور ولاتها، وقال معلقا: وهذا صحيح معنى، فإن الجور والظلم يخرب البلاد، بقتل أهلها وانجلائهم عنها، وترفع البركة من الأرض، والله أعلم[٤١].

وأشار إلى أن شأن كثير من الظلمة ودأبهم أنهم مع ظلمهم يستطيلون بألسنتهم، وينالون من عرض مظلومهم ما حرّم عليهم[٤٢].

ويبيّن مدى المشقة التي لحقت بالناس من جراء ما أحدثه الظلمة في عصره، فعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ (الشعراء:١٣٠) ذكر أن الآية نزلت خبرا عمن تقدم من الأمم، وعظا من الله عزّ وجلّ لنا في مجانبة ذلك الفعل الذي ذمّهم به،

---

٣٨ المصدر نفسه، ج٥، ص٢٥٩.
٣٩ المصدر نفسه، ج٢، ص١٠٩.
٤٠ المصدر نفسه، ج٢، ص٣٤٠. وقد لمّح إلى شيء من هذا في ج١، ص٣٣٤.
٤١ المصدر نفسه، ج٩، ص٣٣٤.
٤٢ المصدر نفسه، ج٦، ص٤.

وأنكره عليهم. ثم قال معلقا: وهذه الأوصاف المذمومة قد صارت عادة لا سيما بالديار المصرية منذ وليتها البحرية ـ المماليك ـ فيبطشون بالناس بالسوط والعصا في غير حقّ. وذكر أن الرسول ﷺ قد أخبر عن هذا الوضع، فقال: "صنفان من أهل النار لم أرهما؛ قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس... الحديث، رواه مسلم[٤٣].

رابعا: فساد العلماء والعامّة وأحوال العصر

يشير القرطبي رحمه الله إلى فساد العلماء في عصره إشارة الناقد الساخط، ويصف بؤس الحال الذي وصل إليه العلم في عصره، فعند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة:٣٢)، ذكر أن من سئل عن علم أن يقول إن لم يعلم: "لا أعلم ولا أدري"، ... وذكر أن هذا هو شأن الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين، وإنما يحمل على ترك ذلك الرياسة وعدم الإنصاف في العلم، ونقل عن مالك قوله: ما في زماننا شيء أقل من الإنصاف. وأضاف القرطبي معلقا: هذا في زمن مالك، فكيف بزماننا اليوم الذي عمّ فينا الفساد، وكثر فيه الطّغام، وطلب فيه العلم للرياسة لا للدراية، بل للظهور في الدنيا وغلبة الأقران بالمراء والجدال الذي يقسي القلب، ويورث الضغن؛ وذلك مما يحمل على عدم التقوى، وترك الخوف من الله تعالى[٤٤].

ولا شك أن فساد العلماء وفساد الأمراء سيؤدي حتما إلى فساد أوضاع الأمّة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وسيؤدي إلى انتشار الفتن فيها فتتراجع حضارتها وتذهب ريحها، وقد أشار القرطبي رحمه الله إلى شيء من ذلك، فعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ (البقرة:٨٤)، قال: وإنما كان الأمر أن الله تعالى قد أخذ على بني إسرائيل في التوراة ميثاقا ألاّ يقتل بعضهم بعضا، ولا ينفيه ولا يسترقه، إلى غير ذلك. وهذا كله محرّم علينا، وقد وقع ذلك كله بالفتن فينا، فإنّا لله وإنا إليه راجعون[٤٥].

وفي الآية نفسها يذكر القرطبي أن العلماء قالوا: كان الله قد أخذ عليهم أربعة عهود: ترك القتل، وترك الإخراج، وترك المظاهرة، وفداء أساراهم؛ فأعرضوا عن كل ما أمروا به من الفداء... ثم يقول: ولعمر الله لقد أعرضنا نحن عن الجميع بالفتن، فتظاهر بعضنا على بعض! ليت بالمسلمين، بل بالكافرين! حتى تركنا إخواننا أذلاء صاغرين يجري عليهم حكم المشركين، فلا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلي العظيم![٤٦].

---

٤٣ المصدر نفسه، ج١٣، ص١٢٤-١٢٥.
٤٤ المصدر نفسه، ج١، ص٢٨٦.
٤٥ المصدر نفسه، ج٢، ص١٩.
٤٦ المصدر نفسه، ج٢، ص٢٢.

وفي عرض بيانه حرص الرسول ﷺ على هذه الأمّة يعرض القرطبي للسبب الذي أوصل الأمّة إلى العقاب الوارد في قوله ﷺ: "إنما مثلي ومثل أمّتي كمثل رجل استوقد نارا فجعلت الدّواب والفراش يقعن فيه، وأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقحمون فيه" رواه مسلم. فيقول: "هذا مثل لاجتهاد نبيّنا عليه الصلاة والسلام في نجاتنا، وحرصه على تخلصنا من الهلكات التي بين أيدينا، فهو أولى بنا من أنفسنا؛ ولجهلنا بقدر ذلك وغلبة شهواتنا علينا، وظفر عدوّنا بنا صرنا أحقر من الفِراش، وأذلّ من الفَراش، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلي العظيم[٤٧]. وإذا كان الجهل قد أوصل الأمّة إلى هذه النتيجة فكيف نعالجه؟ وكيف نسترجع مكانتنا وهيبتنا بين الأمم؟ الجواب قطعا بالرجوع إلى الكتاب والسنّة، لكن كيف؟ هذا هو السؤال الذي ينبغي أن تتوجه إليه عناية العلماء!

ويبيّن القرطبي بعض البدع والمفاسد المنتشرة بين الناس في عصره، فعند تفسير قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (آل عمران:١٨٥)، ذكر ما يتعلق بالجنائز، فبعد غسلها وتكفينها وحملها فالحكم الإسراع في المشي لقوله عليه السلام: "أسرعوا بالجنازة..." لا كما يفعله اليوم الجهّال في المشي رويدا، والوقوف بها المرّة بعد المرّة، وقراءة القرآن بالألحان إلى ما لا يحلّ ولا يجوز حسب ما يفعله أهل الديار المصرية بموتاهم[٤٨].

ويبيّن ـ نقلا عن العلماء ـ أن الأحوال في هذه الأزمان قد انقلبت فأصبح الناس يأتون المنجمين والكهان لا سيما بالديار المصرية، فقد شاع في رؤسائهم وأتباعهم وأمرائهم اتخاذ المنجمين، بل ولقد انخدع كثير من المنتسبين للفقه والدين فجاءوا إلى هؤلاء الكهنة والعرّافين فبهرجوا عليهم بالمحال واستخرجوا منهم الأموال، فحصلوا من أقوالهم على السراب والآل، ومن أديانهم على الفساد والضلال[٤٩].

وفي سياق التحذير من البدع بوجه عام ذكر أن القرآن حذّر من التبديل والتغيير والزيادة في الشرع... وأورد تحذير الرسول ﷺ من افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة... ثم قال: وقد وقع ما حذّره وشاع، وكثر وذاع، فإنّا لله وإنا إليه راجعون[٥٠]. وهو تعليق ليس في محله؛ لأن هذا القول يقتضي أن يشهد عصره نهاية الإسلام، أو انقطاع أمّة محمد بعده، وكأنه سوف لا يلحق الأمّة افتراق بعد ذلك[٥١].

---

٤٧ المصدر نفسه، ج١٤، ص١٢٢.
٤٨ المصدر نفسه، ج٤، ص٤٠٠.
٤٩ المصدر نفسه، ج٧، ص٣.
٥٠ المصدر نفسه، ج٢، ص٩.
٥١ انظر: عدنان زرزور، "منهجية التعامل مع علوم الشريعة في ضوء التحديات المعاصرة"، بحوث مؤتمر علوم الشريعة في الجامعات (١٩٩٥) تحرير فتحي ملكاوي، ومحمد أبو سل (عمّان: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ج١، ص١٢٣-١٢٤).

ويشير إلى بعض المفاسد الأخرى عند الناس في سياق الحديث عن غضّ البصر في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ...﴾ (النور: ٣٠) ذكر أن بهذه الآية حرّم العلماء نصا دخول الحمام بغير مئزر، ثم قال: "أما دخول الحمّام في هذه الأزمان فحرام على أهل الفضل والدّين؛ لغلبة الجهل على الناس واستسهالهم إذا توسطوا الحمّام رموا مآزرهم، حتى يرى الرجل البهيّ ذو الشيبة قائما منتصبا وسط الحمام وخارجه باديا عن عورته، ضامّا بين فخذيه، ولا أحد يغيّر عليه، هذا أمر بين الرجال فكيف بالنساء! لا سيما في الديار المصرية إذ حماماتهم خالية عن المطاهر التي هي عن أعين الناس سواتر، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلي العظيم[٥٢].

وذكر القرطبي مفاسد النساء وما أحدثنه من فتن، ففي بيانه معنى قوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ..﴾ (النور: ٦٠) استشهد بقوله عليه الصلاة والسلام: "... ونساء كاسيات عاريات رؤسهن كأسنمة البخت.." الحديث، وبيّن أن المعنى الأصح في تأويل الحديث هو أنهن كاسيات من الثياب عاريات من لباس التقوى، ثم قال: "وهو اللائق بهن في هذه الأزمان، وخاصة الشباب، فإنهن يتزين ويخرجن متبرجات، فهن كاسيات من الثياب عاريات من التقوى حقيقة، ظاهراً وباطنا، حيث تبدي زينتها، ولا تبالي بمن ينظر إليها، بل ذلك مقصودهن، وذلك مشاهد في الوجود منهن، فلو كان عندهن شيء من التقوى لما فعلن ذلك، ولم يعلم أحد ما هنالك. ومما يقوّي هذا التأويل ما ذكر من وصفهن في بقية الحديث في قوله: "رؤوسهن كأسنمة البخت... شبّه رؤوسهن بها لما رفعن من ضفائر شعورهن على أوساط رؤوسهن. وهذا مشاهد معلوم، والناظر إليهن ملوم[٥٣]. لكن القرطبي لم يبيّن حدّ إبداء النساء في زمنه لزينتهن، لنعرف نوع التبرج الذي كنّ يمارسنه!

ويتصل بهذه القضية حديثه عن التبرج في الأسواق، فقد نقل عن ابن العربي قوله: "... أما الأسواق فسمعت مشيخة أهل العلم يقولون: لا يدخل إلا سوق الكتب والسلاح، وعندي أنه يدخل كل سوق للحاجة إليه ولا يؤكل فيها؛ لأن ذلك إسقاط للمروءة وهدم للحشمة. فيقول القرطبي معلقا: "ما ذكرته مشيخة أهل العلم فنعمّا هو، فإن ذلك خال عن النظر إلى النسوان ومخالطتهن؛ إذ ليس بذلك من حاجتهن. وأما غيرها من الأسواق فمشحونة منهن، وقلة الحياء قد غلبت عليهن حتى ترى المرأة في القيساريات وغيرهن قاعدة متبرجة بزينتها، وهذا من المنكر الفاشي في زماننا هذا، نعوذ بالله من سخطه[٥٤].

---

٥٢ **الجامع لأحكام القرآن**، ج١٢، ص٢٢٤.
٥٣ المصدر نفسه، ج١٢، ص٣١١.
٥٤ المصدر نفسه، ج١٣، ص١٧.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ (التكاثر:٢) ذكر أن الشوابّ من النساء حرام عليهن الخروج لزيارة القبور، وأما القواعد فمباح لهن ذلك. وجائز لجميعهن؛ ذلك إذا انفردن بالخروج عن الرجال، ولا يختلف في هذا إن شاء الله، وعلى هذا المعنى يكون قوله: "زوروا القبور" عاما. وأما موضع أو وقت يخشى فيه الفتنة من اجتماع الرجال والنساء، فلا يحلّ ولا يجوز ــ وقال ملمّحا ــ فبينا الرجل يخرج ليعتبر، فيقع بصره على امرأة فيفتتن، وبالعكس، فيرجع كل واحد من الرجال والنساء مأزورا غير مأجور، والله أعلم[٥٥].

وقال ملمّحا إلى بعض المفاسد الاجتماعية التي تنمّ عن رقّة في الدين عند تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (الزخرف:١٣)، قال: ويستعيذ بالله من مقام من يقول لقرنائه: تعالوا نتنزه على الخيل أو في بعض الزوارق، فيركبون حاملين مع أنفسهم أواني الخمر والمعازف، فلا يزالون يستقون حتى تملّ طلاهم وهم على ظهر الدوابّ، أو في بطون السفن وهي تجري بهم، لا يذكرون إلاّ الشيطان، ولا يمتثلون إلاّ أوامره[٥٦].

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ...﴾ (البقرة:٢٤٩) أشار ملمّحا إلى أن من أراد الحلال الصّرف في هذه الأزمان دون شبهة ولا امتراء ولا ارتياب فليشرب بكفيه الماء من العيون والأنهار المسخرة بالجريان آناء الليل وآناء النهار، مبتغيا بذلك من الله كسب الحسنات، ووضع الأوزار، واللحوق بالأئمة الأبرار[٥٧]. ويوحي هذا الكلام بأن تحرّي الحق في زمنه يكاد يكون معدوما أو نادراً، وهو تصوير يائس لأحوال الناس وطبيعة حياتهم.

خامسا: متفرقات

هناك بعض القضايا المتناثرة التي ذكرها القرطبي مما يتصل بواقع عصره على وجه العموم، وهي:

١ـ بيّن أن في قوله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ (النور:٣١) دليلا على أن الجيب إنما يكون في الثوب موضع الصدر، وكذلك كانت الجيوب في ثياب السلف رضوان الله عليهم؛ على مايصنعه النساء عندنا بالأندلس وأهل الديار المصرية

---

٥٥ المصدر نفسه، ج٢٠، ص١٧٠-١٧١.
٥٦ المصدر نفسه، ج١٦، ص٦٨.
٥٧ المصدر نفسه، ج٣، ص٢٥٤.

من الرجال والصبيان وغيرهم[٥٨].

٢ـ ذكر بعض القضايا الفقهية الواقعية على ندرتها، فقد ذكر أن الآية في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَئْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ...﴾ (النور:٥٨) ليست منسوخة، ولكن على أنها كانت على حال ثم زالت، فإن كان مثل ذلك الحال فحكمها قائم كما كان، بل حكمها لليوم ثابت في كثير من مساكن المسلمين في البوادي والصحاري ونحوها[٥٩].

٣ـ وقد ناقش واحداً من مشايخ زمانه في قضية الأخذ بالأسباب[٦٠]. وهي من القضايا الكبرى في الفكر الإسلامي قد سبق إلى تفصيلها الإمام الغزالي وغيره.

٤ـ وتحدّث عن أرض مصر وكيف كانت تروي بالنيل في عصره، وذكر أنه لم يكن هناك اهتمام بعمارة الجسور النافعة لعملية الريّ[٦١].

٥ـ وذكر عند تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ (فاطر:٣٢) أن المنافق والكافر لا يدخلون الجنة وهم لم يصطفوا، وأن الرسول ﷺ قال: "مثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيّب وطعمها مرّ"، فأخبر أن المنافق يقرؤه، وهو في الدرك الأسفل من النار، وكثير من الكفار واليهود والنصارى يقرءونه في زماننا هذا. وقال مالك: قد يقرأ من لا يحزّ فيه[٦٢].

المبحث الرابع: تقييم موقف القرطبي من قضايا الواقع

وبعد، فهل يمكن أن نلمح موقفا للقرطبي مما جرى في العالم الإسلامي في عصره؟ لم أستطع أن أجد موقفا يبرز دوره كعالم مفسر أو كقيادة فكرية؛ فطبيعة دور المفسر تقتضي منه بيان الهدي الإلهي للناس، والكشف عن أوجه هدايته لهم لأنه الوحيد القادر على أن يمثل دور المفسر الأعظم محمد ﷺ في قيادة الحياة وتوجيهها على حسب ما تتيحه الأحوال.

بل الذي أكاد ألمحه العكس؛ أعني لقد تبنى القرطبي رحمه الله موقفا سلبيا تجاه الأوضاع السائدة في عصره، وذلك لسببين رئيسين:

---

٥٨ المصدر نفسه، ج١٢، ص٢٣١.
٥٩ المصدر نفسه، ج١٢، ص٣٠٣.
٦٠ المصدر نفسه، ج١٣، ص١٤.
٦١ المصدر نفسه، ج١٣، ص١٠٢-١٠٣.
٦٢ المصدر نفسه، ج١٤، ص٣٥١.

السبب الأول: طبيعة الحياة التي ارتضاها القرطبي ـ رحمه الله ـ لنفسه، فقد غلب عليه الزهد في الحياة الدنيا مما كان له أثر في انعزاله عن معالجة وتحليل مشكلات عصره، ووصف العلاج القرآني لها، يشهد لهذا قول العلماء فيه: "كان من عباد الله الصالحين، والعلماء العارفين الورعين، الزاهدين في الدنيا، المشتغلين بما يعنيهم من أمور الآخرة فيما بين توجّه وعبادة وتصنيف"[٦٣].

ويشهد له تلميحه إلى أن العزلة عن الناس في الصوامع والبيوت مندوبة، وذلك عند فساد الزمان وتغيّر الإخوان، مستشهدا بقوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ...﴾ (الحديد:٢٧)[٦٤].

وحاكي كلام ابن العربي في قوله: إن التبتل المنهي عنه، هو سلوك مسلك النصارى في ترك النكاح والترهب في الصوامع، لكن عند فساد الزمان يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر، يفرّ بدينه من الفتن[٦٥].

بل، لقد أعطى القرطبي أهمية للعزلة وفصّل فيها القول على صورة لا تزيد من الدنيا إلا نفورا وهجرانا، خوفا من فتنها، فذكر أن قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ..﴾ (الكهف:١٠) صريح في الفرار بالدين وهجرة الأهل والقرابات والأصدقاء والأوطان والأموال خوف الفتنة، وما يلقاه الإنسان من المحنة. ثم ذكر أحوال الناس في هذا الباب، وأرفعها سكنى الكهوف والغيران في الجبال، وهي الحالة التي اختارها الله لنبيه محمد ﷺ في بداية أمره. ثم قال: وربّ رجل تكون العزلة له في بيته أخف عليه وأسهل، وقد اعتزل رجال من أهل بدر فلزموا بيوتهم بعد قتل عثمان، فلم يخرجوا إلاّ إلى قبورهم. وربّ رجل متوسط بينهما فيكون له من القوة ما يصبر بها على مخالطة الناس وأذاهم، فهو معهم في الظاهر ومخالف لهم في الباطن. ثم ذكر خبرا عن وهب بن منبّه قوله لرجل عزم على عدم مخالطة الناس: لا تفعل! إنه لا بد لك من الناس، ولا بد لهم منك، ولك إليهم حوائج، ولهم إليك حوائج، ولكن كن فيهم أصمّ سميعا، أعمى بصيرا، سكوتا نطوقا[٦٦].

وروّج في كتابه "التذكرة" قضية العزلة وطرقها في أكثر من موضع[٦٧]. والأخطر من

---

٦٣ المقري، **نفح الطيب**، مصدر سابق، ج٢، ٢١٠.

٦٤ **الجامع لأحكام القرآن**، ج١٧، ص٢٦٤.

٦٥ المصدر نفسه، ج١٩، ص٤٥. وانظر: ابن العربي، **أحكام القرآن**، ج٤، ص١٨٨٠.

٦٦ انظر: المصدر نفسه، ج١٠، ص٣٦٠-٣٦٢.

٦٧ انظر: أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، **التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٥)، ص٦١٣، ٦٢٩-٦٣٣، ٦٥٤-٦٥٧.

ذلك، أنه بعد أن بين اعتزال الصحابة بعد استشهاد عثمان رضي الله عنه، قال معلقا: هذا، وكانت الفتنة والقتال بينهم على اجتهاد منهم، فكان المصيب منهم له أجران، والمخطئ أجر واحد، ولم يكن قتالا على الدنيا، فكيف اليوم الذي تسفك فيه الدماء باتباع الهوى طلبا للملك والاستكثار من الدنيا، فواجب على الإنسان أن يكف اليد واللسان عند ظهور الفتن ونزول البلايا والمحن[٦٨]. والمشكل في تبني هذا الموقف: التفريق غير المنضبط بين الدنيا والآخرة، وهذا الفهم للواقع الذي يتخذ الموقف في ضوئه، وعليه فإن عصر القرطبي كانت الفتن فيه على الدنيا فينبغي اعتزالها وتركها لأهلها.

وقد ذكر القرطبي كلاما عن الطبري في غاية الأهمية، وهو قوله: لو كان الواجب في كل اختلاف يكون بين الفريقين من المسلمين الهرب منه ولزوم المنازل وكسر السيوف لما أقيم حدّ، ولا أبطل باطل، ولوجد أهل النفاق والفجور سبيلا إلى استحلال كل ما حرّم الله عليهم من أموال المسلمين، وسبي نسائهم، وسفك دمائهم بأن يتحزبوا عليهم، ويكف المسلمون أيديهم عنهم، بأن يقولوا هذه فتنة قد نهينا عن القتال فيها، وأمرنا بكف الأيدي والهرب منها، وذلك مخالف لقوله عليه الصلاة والسلام: "خذوا على أيدي سفهائكم"[٦٩]. ولم يتبن القرطبي رحمه الله على الصعيد السياسي هذا الموقف، فيقوم أو يدعو إلى إصلاح ما كان يحدث بين زعماء الطوائف، والسبب هو ما تقدم ذكره من اقتتالهم على الدنيا، أو أن حالهم ميئوس منه.

أقول: إن الاعتماد على أحاديث العزلة في تبني هذا الموقف مشكل لأمرين:

أحدهما: أن أحاديث العزلة فهمت بمعزل عن ملابساتها وظروفها، أو بعبارة أخرى بمعزل عن السياق الذي وردت فيه. ثم واضح من هذا أن الفتنة الكبرى التي حدثت بين الصحابة ألقت بظلالها على ما يحدث بعد ذلك في العصور اللاحقة، وهو أمر يتطلب إعادة نظر.

وثانيهما: أن هذه الأحاديث لم تفهم في ضوء مقاصد القرآن وغاياته، فعلى الرغم من عدم اتّفاقها مع مقاصد القرآن وغاياته، نجد أن النزعة الفردية غالبة على فهمها، أعني: أن الهمّ ينصرف إلى نجاة الفرد نفسه وترك الأمة تواجه مصيرها بنفسها. وهو أمر يتنافى مع مهمّة المسلم حامل الرسالة العالمية، وموجّه الحياة البشرية.

والسبب الثاني: ويتصل بالسبب الأول، وهو تأثر القرطبي رحمه الله بأحاديث الفتن

---

٦٨ المصدر السابق نفسه، ص٦٣٠.

٦٩ المصدر نفسه، ص٦٣٦.

وأشراط الساعة، وقد تجلّى هذا في كتابه "**التذكرة**"، فقد كان يبيّن أن كثيرا من الفتن وأشراط الساعة قد ظهر في عصره[٧٠]. ومن ثم فإن الساعة وشيكة الوقوع، وبيان ذلك:

١ـ عند بيانه صفة ولاة آخر الزمان ذكر أن ما أخبر به النبي ﷺ في هذا الباب قد وقع أكثره وشاع في الناس معظمه، فوسّد الأمر إلى غير أهله، وصار رؤوس الناس أسافلهم، عبيدهم وجهالهم فيملكون البلاد والحكم في العباد، فيجمعون الأموال ويطيلون البنيان كما هو مشاهد في هذه الأزمان، فلا يسمعون موعظة ولا ينزجرون عن معصية فهم صم بكم عمي[٧١]. فكيف لو رأى التطاول في البنيان في زماننا، وكم من عالم ردّد هذا القول وحذّر الناس قرب قيام الساعة، وأسقط أحاديث الساعة على واقعه!

٢ـ ذكر في معنى قوله عليه الصلاة والسلام: "أن تلد الأمة ربتها" نقلا عن العلماء: وذلك بأن يستولي المسلمون على بلاد الكفر، فيكثر التسري فيكون ولد الأمة من سيدها بمنزلة سيدها لشرفه ومنزلته بأبيه، وعلى هذا فالذي يكون من أشراط الساعة استيلاء المسلمين، واتساع خطتهم وكثرة الفتوح، وهذا قد كان. ثم ذكر أقوالا أخرى في معنى الحديث كغلبة الجهل بتحريم بيع أمهات الأولاد، أو يكون المعنى كناية عن كثرة العقوق. ثم قال القرطبي: وهذا ظاهر في الوجود من غير نكير، مستفيض وشهير. ثم ذكر قولا عن أحد شيوخه أن المعنى هو الإخبار عن استيلاء الكفار على بلاد المسلمين. كما في هذه الأزمان التي استولى العدو فيها على الأندلس وخراسان وغيرهما من البلدان، فتسبى المرأة وهي حبلى أو ولدها صغير فيفرق بينهما، فيكبر الولد فربما يجتمعان ويتزوجها كما قد وقع من ذلك كثير فإنا لله وإنا إليه راجعون[٧٢]. ولا شك أن هذا كلام عجيب، ومنهج في فهم الأحداث خطير، إذ يغرس في أذهان العامّة أن الأمر أنف، وأن الاستسلام للأحداث هو أقرب طريق للخلاص، فالساعة على وشك الوقوع. وهذه سلبية في التعامل مع أحاديث الساعة.

٣ـ وذكر ما أخبر عنه الرسول عليه الصلاة والسلام من علامات الساعة من حدوث خسف في المشرق وخسف في المغرب وخسف في جزيرة العرب. ثم ذكر أن أول الآيات: الخسوفات الثلاثة، وذكر عن ابن وهب أن بعضها قد وقع في زمن النبي ﷺ. وعن ابن الجوزي أنه وقع بعراق العجم زلازل وخسوفات هائلة هلك بسببها

---

٧٠ المصدر نفسه، ص٦٧٨ـ٦٧٩، ٧١٢، ٧١٣، ٧٢١ـ٧٢٢.
٧١ المصدر نفسه، ص٧٢٨.
٧٢ المصدر نفسه، ص٧٢٩.

خلق كثير. ثم قال القرطبي: وقد وقع ذلك عندنا بشرق الأندلس فيما سمعنا من بعض مشايخنا بقرية يقال لها "قطرطنده" من قطر دانية، سقط عليها جبل هناك فأذهبها[٧٣]. فإذا كان سقوط جبل من علامات الساعة، فكيف بدمار مدن كبرى، كما شاهدنا أخيرا في مدينة كوبيه اليابانية.

٤ـ ذكر حديثا مرويا عن معاوية: ستفتح بعدي جزيرة تسمى الأندلس.. ثم قال: كل ما وقع في حديث معاوية هذا فقد شاهدنا بتلك البلاد، وعاينا معظمه إلاّ خروج المهدي[٧٤].

٥ـ وانظر إلى منهج القرطبي في فهم هذه الأحداث: حيث أشار إلى أن علامات الساعة الكبرى يتقدمها قبض العلم وغلبة الجهل واستيلاء أهله، وبيع الحكم، وظهور المعازف، واستفاضة شرب الخمور، واكتفاء النساء بالنساء، والرجال بالرجال، وإطالة البنيان، وزخرفة المساجد، وإمارة الصبيان، ولعن آخر هذه الأمة أولها، وكثرة الهرج، وهي أسباب حادثة، ورواية الأخبار المنذرة بها بعدما صار الخبر بها عيانا تكلف، لكن لا بد من ذكرها حتى يوقف عليها، ويتحقق بذلك معجزة الرسول ﷺ وصدقه في كل ما أخبر به[٧٥]. أقول: إن الرسول ﷺ صادق في كل ما نطق به، ومعجزته قائمة في كل حين، لكنه عليه السلام لم يخبر أن وقوع هذه الأحداث سيكون في عصر القرطبي، ولم يقل إن هذه العلامات تسوغ للمرء العزلة والاستسلام لها. ومبدأ الأخذ بالأسباب واجب قرآني.

٦ـ وذكر القرطبي معلقا على ما جاء في الحديث: "ويتقارب الزمان"، تقارب الزمان تقارب أحوال أهله في قلّة الدين حتى لا يكون فيهم من يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر، كما هو اليوم لغلبة الفسق وظهور أهله[٧٦] وهو كلام يدل على حالة اليأس التي وصل إليها القرطبي، وهي حالة مخالفة لطبع العلماء، بل وعامّة الناس.

ثم ذكر: حتى يمرّ الرجل بقبر الرجل فيقول ليتني مكانه، لما يرى من عظيم البلاء، وربح الأعداء، وغبن الأولياء، ورئاسة الجهلاء، وخمول العلماء... كما في هذا الزمان[٧٧]. وأقول: نحن أولى بهذا الكلام بعد سبعمائة وأربعين سنة تقريبا من وفاة القرطبي، ومع ذلك فمفهوم السببية يحتم مواجهة الأحداث بعقلية ومنهجية في إطار غايات القرآن ومقاصده.

٧ـ والأخطر من ذلك أيضا تعليقه على ما جاء في الحديث: ... حتى يكون

---

٧٣ المصدر نفسه، ص٧٣٩ـ٧٤٠.
٧٤ المصدر نفسه، ص٧٠٣.
٧٥ المصدر نفسه، ص٧١٠.
٧٦ المصدر نفسه، ص٧١٦.
٧٧ المصدر نفسه، ص٧١٦.

لخمسين امرأة القيم الواحد، قال: وقد كان هذا عندنا أو قريبا منه بالأندلس[٧٨].

أضف إلى هذين السببين طبيعة المنهج التقليدي الذي رسمه القرطبي في تفسير القرآن، والذي قصر البحث فيه على قضايا العلم لا قضايا الواقع.

فتكاد تلمح من هذا كله نفسية القرطبي وحقيقة موقفه الذي تبناه في مواجهة الأحداث بوصفه مفسرا للقرآن الكريم، وهذا هو الإشكال الحقيقي في العمل التفسيري.

إن مجموع الصفحات التي دونها القرطبي في تفسير القرآن مما له صلة بواقع عصره لم يتجاوز عشرين صفحة، بينما بلغ مجموع ما دوّنه القرطبي من صفحات في تفسيره للقرآن كله ــ في الطبعة الحديثة ــ سبعة آلاف وأربعمائة وأربعا وأربعين صفحة، وبعبارة أخرى إن الواقع لم يحظ بجهد القرطبي إلاّ بنسبة مئوية لا تكاد تذكر، هذا من حيث الكم، أما من حيث الكيف فلم تكن عنايته بتحليل قضايا عصره عناية المفسر المصلح المبيّن لهدى القرآن، وكيف يكون ملجأً للأمّة في كل حين.

إن ما أشار فيه القرطبي إلى بعض أوضاع عصره ليس بشيء في مقابل الكم التفسيري الهائل الذي دوّنه في تفسيره للقرآن الكريم كله، وليس بشيء كذلك في مقابل الأحداث الجسام والمرض العضال الذي كانت تتجرعه الأمّة وتعاني منه في عصره، ولمزيد من التوضيح أقول:

ـ إن حديث القرطبي لم يكن متوجها مباشرة إلى هذه الأحداث والوقائع المؤلمة بل جاء تعقيبا أو تعليقا في ثنايا الآيات في الأعم الأغلب.

ـ إن البعد التحليلي لهذه الوقائع والأحداث والأمراض لم يكن متوجها إليه عند القرطبي، فلم يذكر الأسباب التي أوصلت الأمّة إلى مثل هذه الحال، ولم يتوجه باقتراحات أو آراء عملية لإصلاح تلك الأوضاع. وكان الحديث في الغالب منصبا على الوصف المجرد، وذكر الأحداث فحسب!

ـ لم يكن حديث القرطبي في موضوع الجهاد على وجه الخصوص يناسب طبيعة المرحلة والأحداث التي كانت تمر بها الأمة آنذاك سواء في بلاد المغرب أو في بلاد المشرق، حتى القضايا التي ذكرها فيما يتصل بالجهاد كانت جزئية.

ـ حديث القرطبي عن علماء عصره كان مجرد وصف للحال الذي كانوا عليه، وهو حال لم يكن طارئا على بيئة القرطبي، وليس جديدا بالنسبة له، لكن معالجته بهذا

---

٧٨ المصدر نفسه، ص ٧٢٤.

الوصف أمر قد يقبل من عوام الناس، لا من مفسر عظيم كالقرطبي. لقد انتقد الشيخ رشيد رضا رحمه الله هذا المسلك من المفسرين كالغزالي والرازي والنيسابوري في حديثهم مثلا عن فساد العلماء، فقال: "ومن العجيب أن هؤلاء العلماء تنبهوا في القرون الوسطى إلى سوء حال علماء الإسلام، الذين يلقبهم الغزالي بـ "علماء السوء" و لم يحاولوا معالجة هذا الداء واصطلام أرومته، وهي تفرق المذاهب والتعصب لها بالدواء الذي وصفه الله تعالى في كتابه، وهو تأليف أمّة تدعو إلى الاعتصام، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، بل اكتفى بعضهم بالشكوى من ذلك وإنكاره في الكتب التي يؤلفها"[٧٩]، وقد تحدث القرطبي عن حال العلماء ، واكتفى بالتعليق على الوضع المأساوي لهم ببيان أن حالهم في زمانه أعجب من حال من كان في زمن الإمام مالك رحمه الله.

ـ الحوقلة والاسترجاع والدعاء عبارات كان يعلق بها القرطبي على أوضاع العصر الفاسدة، فهل نكتفي من مفسر عظيم بهذا القدر من التعليق؟ وإذا كان كذلك فبأيّ شيء يتميز العالم المفسر عن عوام الناس!! ليس مطلوبا من المفسر أن يسير الجيوش ويؤجج الجماهير على الثورة ضد الحكام أو أعداء المسلمين، ولكن المطلوب منه أن يعتني بقضايا الواقع عناية الطبيب بالمريض! ولماذا يفترض أن لا يكون المفسر مصلحا وهو يتعامل مع نص قرآني خالد مطلق يتنزل في كل عصر خاصا بأهل ذلك العصر؟! و لم فصل بين الإصلاح والتفسير؟ و لم ينشغل المعنيّون بقضايا العلم عن قضايا الواقع؟ بل يفصلون بينهما وكأنهما على عداء أو أن هذا ليس من شأن المفسر!

لقد اعتنى القرطبي رحمه الله ببيان الأحكام وأسباب النزول والقراءات واللغة... وهي قضايا قد سبق إليها. وقد أخذت الإسرائيليات منه جهدا أكثر من هذا، وظهرت على حساب بيان السنن الإلهية في القصص القرآني، واستغرقت منه صفحات كثيرة، مع أن القرطبي نفسه يقول: "والإسرائيليات مرفوضة عند العلماء على البتات، فأعرض عن سطورها بصرك، وأصمم عن سماعها أذنيك؛ فإنها لا تعطي فكرك إلاّ خيالا، ولا تزيد فؤادك إلاّ خبالا!"[٨٠].

على أن هناك بعض الصفحات المشرقة من تاريخنا الإسلامي الذي عاشه القرطبي رحمه الله حقيقة بأن يسلط الضوء عليها وتدرس دراسة منهجية؛ فقد دحر المسلمون التتار والصليبيين في حروب ومعارك كثيرة في المشرق والمغرب، أهمها معركة عين جالوت التي

---

٧٩ محمد رشيد رضا، **تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار** (مصر: دار المنار، ١٣٧٣هـ)، ج٤، ص٥٠.
٨٠ **الجامع لأحكام القرآن**، ج١٥، ص٢١٠.

وقعت سنة ٦٥٨هـ في المشرق. وجاء الخبر من الأندلس بأن المسلمين انتصروا على الفرنج، وقتلوا خمسة وأربعين ألفا، وأسروا عشرة آلاف، واسترجعوا منه اثنتين وأربعين بلدة، منها: برنس، وأشبيلية، وقرطبة، ومرسية في رمضان سنة ٦٦٢هـ[٨١].

ومنها: أن الملك الأشرف موسى بن العادل لّما ولّي دمشق سنة ٦٢٦هـ نادى مناديه أن لا يشتغل أحد من الفقهاء بشيء من العلوم سوى التفسير والحديث والفقه، ومن اشتغل بالمنطق وعلوم الأوائل نفي من البلد[٨٢].

هذا إضافة إلى كثير من المواقف الأبية التي اتّخذها بعض الحكام، لكن القرطبي رحمه الله لم يركز على هذه الجوانب الإيجابية في واقع تاريخنا الإسلامي.

الخاتمة:

وبعد، فهذا ما نتج من حصيلة ما ذكره القرطبي رحمه الله في تفسيره من حديث عن الواقع، وبه يعلم مدى واقعية الكلام الذي يدّعي أن القرطبي تحدث عن الواقع واهتم بقضاياه، وبه أيضا يعلم مدى واقعية قول بعض الباحثين إنّ: "كل جيل من أجيال المسلمين كان يجد في نصوص القرآن حديثا لواقعه وإصلاحا لحياته، وكأنها تنزلت اللحظة عليهم، وكل مفسر من المفسرين كان ينطلق من نصوص القرآن لتربية قومه وإصلاح أمورهم، وكل تفسير من تفاسير القرآن يمكن أن تستخرج منه الحالة الثقافية والمستوى الحضاري والوضع الأخلاقي والاجتماعي والإيماني والسلوكي للعصر الذي عاش فيه المفسر، وكان هذا التفسير سجلاً حضاريا تاريخيا وثائقيا لحالة ذلك العصر، وما هذا إلاّ لأن نصوص القرآن منطبقة على زمان المفسر ومكانه وموجهة للناس من حوله[٨٣].

إن العبارات الساخطة اللاذعة التي أطلقها بعض من المفسرين والعلماء منتقدين بعض الأوضاع السيئة التي كانت سائدة في عصرهم، ليست هي الواقعية التي نعنيها، وهي مع ذلك لا تشكل منهجا لواحد منهم، ولا تؤصل طريقة في معالجة أوضاع الواقع من خلال القرآن الكريم.

أقول: ليس مطلوبا من المفسر أن يفسر القرآن كله، فرسول الله ﷺ لم يكن يفسر من القرآن إلاّ ما كانت تدعو إليه الحاجة، فلم لا نتأسى به ﷺ في تفسير ما تدعو إليه حاجة وأوضاع عصرنا، وأمراض وآلام عصرنا بتدبر القرآن وربطه بحياة الناس؛ ليشعر

---

٨١ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص١٥٨.

٨٢ المصدر السابق نفسه، ج١٣، ص١٥٨.

٨٣ صلاح عبد الفتاح الخالدي، **مفاتيح للتعامل مع القرآن** (الأردن: مكتبة المنار، ١٩٨٥)، ص١٠٦.

الناس أن القرآن قريب منهم، وأن صلته وثيقة بحياتهم، بدل أن يتحول تفسيره إلى تاريخ بعيد الصلة عن حياة الناس!!

إن الذي يقتضيه معنى التفسير وحقيقته أن يكون المفسر ملزما بالاطلاع على بيئة عصره، ومتمكنا من الثقافة السائدة، وأن يكون حاضرا بفكره وعلمه في واقع عصره، مؤثرا فيه ليس هاربا منه، ولا غائبا عنه.

إن البعد عن معالجة قضايا الواقع وتحليلها، وقصر التفسير على بيان قضايا علمية مكرورة ـ هو الإشكال الحقيقي في العمل التفسيري، والذي جاء نتيجة اشتغال المفسر ـ على وجه الخصوص ـ بقضايا العلم النظرية وتفاصيلها الجزئية. ودليل آخر على عدم الواقعية في النهج التفسيري أن هذه الكتب القيّمة في التفسير كان لها شأن كبير عند علماء المسلمين، ولكنها مع ذلك لم تؤلف للعوام من الناس، و لم يكن جمهور العوام بالذين يحظون باهتمام المفسرين، فما هي كتب التفسير التي توجهت إلى خطاب الجمهور؟!!

ينبغي أن يفهم القارئ أن القصد لم يتوجّه إلى التعريض بواحد من المفسرين، وأرجو أن نتجاوز التقعر في النقد، والطعن في النيّات، لندرك قضية أخرى أعظم ضررا، وهي سير العمل التفسيري الحديث على غرار النهج التفسيري القديم مع اختلاف قضايا العلم وجزئياته التي يحشو بها المفسر الحديث تفسيره للقرآن الكريم. وليعلم أن واقع التعليم في المؤسسات والمعاهد التعليمية المعاصرة هو واقع قد حذا ـ حذو القذّة بالقذّة ـ النهج التقليدي القديم في منهج تفسير القرآن الكريم.

فها نحن اليوم ـ طلبة الدراسات الشرعية وأساتذتها ـ نذهب إلى عمق التراث ندرس قضاياه وهمومه دون التفات إلى هموم واقعنا وقضاياه، وإبداء الاجتهاد والرأي وإيجاد الحلول التي تواجه هذه التحديات، بينما يذهب طالب الطب ليدرس مرضا ما انتشر في بلد معين، ويذهب طالب الزراعة ليدرس نوعا من الفطريات أو الحشرات في منطقة ما، ويذهب طالب الاقتصاد ليدرس خللا ما في ميزان المدفوعات، ويذهب طالب الاجتماع ليدرس ظاهرة ما... كل القضايا التي يبحثون فيها قضايا واقعية، حتى الحشرات تستحق أن يكتب فيها رسائل دكتوراه. أما طالب الشريعة فإنه يذهب للبحث في مسائل طافية على السطح أغلبها نظري، ويتوجّه باحثاً إلى جمع ما تفرق على الأعم الأغلب، وتجده يحفظ نصوص القرآن والسنة ومسائل الفقه، فإذا ما جاء إلى قضية واقعية ليحلل أبعادها وجم ووجف!!